دور الكتاتيب القرآنية في ترسيخ ثوابت الأمة وهويتها

The role of the "Katatib" (Quranic schools) in establishing the nation's constancies and identity

الدكتورة : براهمي فطيمة*	الدكتورة: بن شاعة لامية
brahhiba@gmail.com	benchaa09 lamia@gmail.com
جامعة جيلالي ليابس –سيدي بلعباس -الجزائر	جامعة جيلالي ليابس –سيدي بلعباس -الجزائر

تاريخ الإرسال: 2020/03/17 تاريخ القبول: 2020/06/05 تاريخ النشر: 2020/07/10

الملخّص:

عرف المجتمع الجزائري عبر حقب تاريخية متعاقبة نمط تعليمي تقليدي معين تجلى في الزوايا والكتاتيب القرآنية، ومنه يسعى هذا البحث إلى الحديث عن الكتاتيب القرآنية ومساهمتها في تربية النّشء وتنوير عقولهم وتهذيب طباعهم وتقديم تعليم مبسط لهم.

الكلمات المفتاحية: الكتاتيب القرآنية، الثوابت، الأمة، الهوية، الطفل، قدراته .

Abstract:

Throughout consecutive historical eras, the Algerian society knew a specific traditional educational style, through "Zāwiyah" (Islamic religious school) and "Katatib" (Quranic schools). So, this study aims to highlight and seeks to talk about the contribution of the "Quranic schools" to educate young people, enlighten their minds, reform their behaviour and provide them simplified education.

Key words: *"Katatib" (Quranic schools) – constancies – nation – identity – child – abilities…*

مقدمة:

اختلفت طرق التّعليم و تنوعت في البلاد العربية و الإسلامية، و اختلفت بين المدارس القرآنية، و الزوايا و الكتاتيب، فمثلت ظاهرة فريدة من نوعها آنذاك، كان الهدف تعليمي تربوي و أخلاقي، و المجتمع الجزائري ليس ببعيد عن هذا الأثر العلمي، فهو مترسّخ في عقلية المجتمع و تتلاؤم مع طبيعته في تبني مفهوم ادخال الأبناء إلى هذه المدارس القرآنية، و إن كانت الغالبية على مدى سنين تسير على نفس النهج في تعليم صبيانها .

وفي هذا السياق تطرح الإشكالية الرئيسية الآتية: كيف أدت الكتاتيب القرآنية دورها في ترسيخ ثوابت الأمة وهويتها؟ وما مدى مساهمتها في تنمية قدرات الطفل؟ هذه الإشكاليات وغيرها سيتم الإجابة عنها من خلال هذه المقالة.

* المؤلف المرسل

1-تحديدات مصطلحية:

إنّ الحديث عن الكتاتيب القرآنية والأدوار التي تقوم بها، يتطلب منا أولا الوقوف عند بعض التّحديدات الاصطلاحية، ولهذا الغرض تم اختيار بعض العناصر المهمة التي تأثث موضوع البحث و هي كالآتي:

أ-المساجد:

كان و لا يزال المسجد المنارة المضيئة على القرآن الكريم و مختلف العلوم المحيطة به، و حظي بعناية المسلمين حفظًا و تفقهًا و شرحًا و تفسيرًا و تدوينًا و روايةً، فهي :« ساحات الدرس و التعليم، و المكان المناسب لتعليم القرآن و دراسة علومه، و مدارسته، و قد شهدت الأمصار الإسلامية المختلفة نهضة علمية بالعلوم الإنسانية، و بخاصة القرآن و علومه ...وتبرز الدراسات العلمية الموثقة فيما يخص أثر المساجد في المحافظة على القرآن الكريم و العناية بعلومه، أنه لم يتوقف بنشوء المدارس و تأسيسها فيما بعد .....»[1]. قام (**أبو قاسم سعد الله**) بتقديم رأيه حول المدرسة القرآنية معتبرًا إياها أصغر وحدة في التّعليم، وتجلى دور هذه المؤسسة القرآنية في تعليم وتربية الأطفال الصغار والسير على نهج القواعد الإسلامية، و تسعى للحفاظ على المنظومة الاجتماعية، و تحفيظ القرآن الكريم، و تحاول أيضا تقديم معلومات لابأس بها حسب مستوى الأطفال و قدراتهم، و ذلك من أجل بناء مجتمع ثقافي و ديني، و هي بهذا تُعِدُ جيلاً معه تتضاءل الأمية و التخلف، و من سمات المساجد في عملية التّدريس هو تمرين اللّسان على الفصاحة و القراءة، و تلقينهم المبادئ الأولية للكتابة من خلال الاعتناء بالخط و الحفاظ عليه [2] . تبقى رسالة المساجد من أسمى الرسائل التي تؤديها في خدمة القرآن الكريم، و الرفع من شأن الجهود التي يقوم المسؤولين عن هذه المؤسسة الدينية.

ب-الزوايا:

اكتسبت الزوايا حضورًا متميزًا في المجتمعات الإسلامية، و ارتبطت بكل ماله علاقة بالقرآن الكريم، فهي عبارة عن مجموعة من البنايات ذات طبيعة معمارية إسلامية، فقد بنيت قبائها على أضرحة الأولياء الصالحين، فهي تمثل رمزًا من رموز الثقافة و الهويّة الوطنيّة، و بنائها هو إحياء لذكرى أصحابها، اختلفت تسميات الزوايا، فهناك من يرى أنّ لها علاقة بمفهوم الانزواء و العزلة عن المدينة، و ذلك مرتبط بتواجدها في القرى و المداشر، أو لأن وجودها كان على أطراف المدن أو ركن منزوي بها، وهناك من يرى أنها تشبه المدرسة أو الدير[3] . ومن جانب آخر، فالزاوية تعرف على أنّها مدرسة دينية لتحفيظ القرآن الكريم، و مجانية، و بمثابة دار تستقبل الضيوف، و تضم مصلى و قاعة لتلاوة القرآن الكريم، و تلقن طلابها علوم الدين و قواعد اللّغة العربيّة، كما تضم مراقد لإيواء الطلبة، و ضيوف الزاوية، و الحجاج و المسافرين، كما تضم ضريح الولي الصالح، و هذا الأخير غالبا ما يكون هو المؤسس لهذه الزاوية [4] . و منه تشكل الزوايا حلقة وصل بينها و بين المجتمع.

يتحدث (**ناصر الدين سعيدوني**) عن طبيعة تنظيم الزوايا ببلاد القبائل بالجزائر فيقول: « و يشمل الزوايا بالبلاد الجزائرية، و خاصة بمنطقة القبائل على مجموعة بناءات تتوزع على المرافق الضرورية للزاوية، فهناك مكان مخصص لحفظ القرآن و تلاوته (قراءة الحزب)، و أداء فريضة الصلاة و هو بمثابة مسجد الزاوية، و مكان آخر للدراسة يعرف عادة بالعمرة، وقد تقتصر عليه الزاوية، بالإضافة إلى دار للضيافة و غرف لإيواء الطلبة، و بناء لاستقبال الزوار و الضيوف

و ملحق لإقامة أهل الزاوية، أو لسكن القائمين عليها، و غير بعيد عنها المصالح الضرورية من مطبخ و إسطبل و مخازن لحفظ المؤونة، و رحى لطحن الحب، و معصرة لعصر الزيت و غيرها ....إن الزاوية بهذه المواصفات أصبحت مجمع متعدد الخدمات، فهي المسجد، و المدرسة، و الملجأ، و المأوى، و المزار، الأمر الذي جعلها محور الحياة الروحية، و الثقافية و حتى الاجتماعية في الوسط الريفي ببلاد القائل....»[5].

بالإضافة إلى هذا فالزوايا هي عبارة عن مجموعة من أبنية ذات طابع معماري إسلامي، وقبائها فقد شيدت قبائها على أضرحة الأولياء الصالحين من أجل تخليد ذكراهم، أما عن تسمية الزاوية فاختلفت الآراء حولها، فهناك من يرى أنها جاءت لعزلتها عن المدينة باعتبار أنّ العديد من الزوايا كانت متواجدة في مناطق على نائية، و هناك من يرى أنها ركن منزوي، و هي تشبه المدارس أو الأديرة [6].

كما أنّ الزوايا في البلدان العربية و الإسلامية: « قد أدّت وظائف تعليمية، و دينية جليلة، و أسهمت إسهاما كبيرا في نشر القرآن تعليما، وحفظا و مدارسة، و قامت بآثار جليلة في تربية الناشئة ...إن تخطيط هذه الزوايا و مكوناتها يعطي تصورًا كاملاً عن الوظائف التي تؤديها، وهي و إن اختلفت من بلد إلى بلد، و من قطر إلى قطر فإنها تجتمع كلها في الأهداف التي بنيت من أجلها »[7] .و يرجع البعض سبب ظهور الزوايا نتيجة تفشي التّخلف و الجهل، لذا ظهرت الزوايا على نطاق واسع في المدن و القرى، خاصة إبان الفترة التركية (**العهد التركي**)، و الزاوية عبارة عن بيت أو مجموعة بيوت بناها بعض الفضلاء لإيواء القراء، و قراءة القرآن الكريم و ذكر الله تعالى [8] . ومن أهم أعمال الموكلة للزوايا التربية، وتقديم القيم الخلقيّة، والتّعليم، ناهيك عن أعمالها الثّقافية، كما أنّها كانت مركزا لإيواء الغرباء، و عابري السبيل، و الفقراء، و ملجأً للمجاهدين، و الفدائيين أيام الثورة التحريرية الكبرى المظفرة ضد المحتل الفرنسي [9] . ومنه لا يختلف دور الزوايا عن دور المسجد في تحفيظ القرآن الكريم، والقيام بأعمال ثانوية مختلفة وجليلة.

ت–الرباط :

يعود اسم رابطة و مرابطة، ارتبط هذا الاسم بالثكنات العسكريّة، و يقوم المجاهدون بمهمة حراسة الحدود خاصة الحدود الإسلامية، و الرابطات هي مركز تشبه على حد بعيد الزوايا في وظائفها الاجتماعية و الثقافية، إلا أنّ مكان تمركزها و تواجدها يكون قريبا من مواقع الأعداء (**العهد التركي**)، و لا تقتصر الرابطات على مهمة الدفاع عن الوطن و المواطن، و الحفاظ على تراثه الإسلامي، بل تقوم بمهمة التعليم [10] . مهمة المرابطين لا تقتصر على أئمة المساجد، بل تقع أيضا على عاتق الجيش والثكنات، فكانوا يقومون بتعليم غيرهم من جهة، ومن جهة أخرى حراسة الحدود والأشخاص.

ث–المعمرة:

يقصد بالمعمرة مجموعة مؤسسات ثقافية شبيهة بالكتاتيب القرآنية أحيانا، وبالزوايا أحيانا أخرى، و تنتشر في الكثير من أرياف الجزائر، و تتواجد في المناطق الجبلية، حيث يحضر الأطفال من كل الجهات القريبة و البعيدة، و أحيانا من

خارج البلاد و يهتمون بقراءة القرآن الكريم، و حفظه، و تجويده و ترتيله بكل دقة، بالإضافة إلى تلقينهم بعض المعارف و العلوم الدينية و اللغوية [11]. وبهذا شكلت المعمرة منبرا دينيا وثقافيا في استقطاب الوافدين إليها.

جـ–الكتاتيب:

تتميز الجزائر بوجود المدارس القرآنية والزوايا، بالإضافة إلى الكتاتيب، فقد عنيت بها، وكانت من السمات التي تميز بها الشّعب الجزائري عبر حقب تاريخية متوالية، يمكن القول أنّ الكتاتيب: «عبارة عن حجرة أو حجرتين في المدن كما في الأرياف، يكون أثاثها حصر يجلس عليه الطلبة وألواح خشبية وأقلام من القصب كمية من الصلصال و السمغ المصنوع من صوف الغنم ...» [(12)]. يتكون الكتاب: «من غرفة يجتمع فيها الأطفال حول معلم القرآن ويستعملون في تعليمهم أدوات بسيطة كاللوحة والسمق والأقلام المصنوعة من القصب. وتفرش الكتاتيب بالحصير، وأما أوقات التدريس بها فهي عادة ما تكون مرة أو مرتين أو ثلاث بعد الصلوات المكتوبة...» [(13)]. تمتاز الكتاتيب في بساطة مكانها من ناحية الغرفة ومكوناتها، و غالبا ما تكون: «في زوايا و أماكن خاصة، و تلحق أحيانا ببعض القرآن و نشره في القرى و المدن، و بين طبقات المجتمع المختلفة، يعود لها الفضل الكبير في تعليم الصبيان، وتحفيظهم للقرآن الكريم في البلاد و القرون الإسلامية كافة، و لها أثر مشهود، و دور كبير مهم لا ينكر في تعليم الصبيان، و تلقينهم القرآن، فهي أول ما يستقبل الصبي المسلم، و هي أول ما تنقش على صفحات صدره البيضاء النقية آيات الذكر الحكيم التي تظل راسخة في ذاكرته مدى الحياة » [(14)]. وكان لوجود الكتاتيب إضافة وقيمة داخل المجتمع الجزائري مما أوكل لها من مهام دينية وخلقية، و ساهمت في تغيير تفكير المجتمع إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر، فكانت تحارب الظلم، وتقوم بتوعية الناس بخطورة المستعمر، ومحاربة الجهل و الأمية و تفشيها.

2–دور الكتاتيب القرآنية اتجاه ثوابت الأمة:

ارتبطت الكتاتيب أيما ارتباط بثوابت الأمة والرموز الوطنية، يذكر (**عبد الكريم غلاب**) أنّ: «المنظرون الاستعماريون يؤكد أن الإسلام واللغة العربية هما ركيزتا هذه الشخصية، فقد حاولوا أن يهدموا الركيزة الأولى .... كما حاولوا أن يهدموا الركيزة الثانية بإحلال اللغة الأجنبية للقضاء على الذاتية» [(15)]. فهي تشكل: «... صمام أمان لحفظ تماسك البلد وأمنه ووحدته دينيا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا ...لذلك فهي لا تقبل المصادرة والانتهاك من أي كان؛ فالثوابت كالدين ووحدة التراب الوطني، واللغة، والتاريخ، ولا تقبل التغيير والتبديل؛ بخلاف حرية الفكر وتنوع الآراء والاجتهادات التي فيها في فسحة الاختلاف ومتاح التغير بتغيير الأشخاص والأزمنة والأحوال...» [(16)]. تتلخص الثّوابت في القرآن الكريم، واللّغة العربيّة، والوطن، والتاريخ، يرى بعض الباحثين مما ذكره (**عبد الحميد بن باديس**) أنّ الجزائر بنيت على نهضة إسلامية فلا خوف عليها من الأجناس وديانتهم سواء كان نصراني، أو يهودي، أو مجوسي، ولكن الخوف من الظالم وغيه، والخائن بخيانته والدجال بدجله [17]. وبهذا فالإسلام لا يقف في وجه الديانات الأخرى، خاصة إذا كانت مسالمة، بل كل الخوف من أهل الظلم والضيم .

كان (**عبد الحميد بن باديس**) كغيره من المفكرين والمصلحين الغيورين على عروبتهم ولغتهم العربيّة، و من بين المطالب الرئيسية التي رفعت إلى المؤتمر الإسلامي، من أجل اعتبار اللّغة العربية لغة رسمية مثل اللغة الفرنسية، ويتم كتابتها مع الفرنسية كل المناشير الرسمية، تعطى الحرية في تعليمها في المدارس الحرة كالفرنسية [18].ولأنّ اللّغة العربيّة هي حياة الإنسانية ونبضها، تنهض الأمم :«...بلغاتها ...أما الموت بالنسبة لها فليس إلا الحرمان من اللغة الخاصة بها »[(19)]. ومنه سعت الكتاتيب للحفاظ على القرآن الكريم واللّغة العربية بتحفيظه وتعليم مبادئ وقواعد اللّغة العربية.

تهدف الكتاتيب إلى تعريف النّاس عموما والأطفال خصوصا بوطنهم وهويتهم، فالوطن هو ذلك الانتماء والتاريخ الذي يجمعهم، وهو أيضا تلك الأحاسيس التي تفرح لفرحه وتحزن لآلامه، باعتباره خليط معقد من الأحاسيس، والوصول يحتاج الغوص والتعمق فيها [20]. إلى جانب هذا يتضح أنّ تاريخ هذا التّقليد يعود إلى العهد الاستعماري، حيث حافظت هذه الزوايا على الهوية العربية الإسلامية للجزائر في مواجهة محاولات التنصير التي قامت بها فرنسا أثناء احتلالها للبلاد 132عاما بين 1830م و1960م [21] ، كما يقول بعض المتخصصين وكما هو معلوم يرتبط الوطن بالهوية، فهي تمثل: «... الحقيقة للشيء أو الشخص المشتملة على صفاته الجوهرية التي تميزه عن غيره وتسمى أيضا وحدة الذات أي خلوها من التناقضات والتشتت» [(22)]. و الذي لاشك فيه أنّ الهوية تقع في : :«...مقام مركز الدائرة عند كل محيط ثقافي و بمثابة العمود الثقافي في كل منظومة رمزية تتشكل بها الأعراف كما في مراسم الفرح أو طقوس أو نواميس الزواج أو تراتيب الميراث ....كما تتحدد معالمها بتميز فارق بين الثقافات الإنسانية... »[(23)]. وهذه المقومات متجّذرة في طبيعة الإنسان الجزائري لا يمكن أن يتخلى عنها، وهذا ما قامت به الكتاتيب والزوايا، فتعلمه حب دينه ولغته العربيّة، وتغرس فيه حب الوطن وتعلّقه به.

3-جهود الكتاتيب في تنمية قدرات الطفل:

تبوأت الكتاتيب مكانةً هامةً ومرموقةً، نظير ما تقدمه من أعمال جليلة، فاتجهت عديد العائلات الفقيرة والغنيّة إلى ارسال أطفالها إلى هذه الكتاتيب، باعتبارهم يمثلون صفحات بيضاء نقية، يمكن ملأها و شحنها بما يتلاءم و عمره، و تعمر قلوبهم بكل ما هو ديني و تربوي، و يرسخ في أذهانهم، فكان الإقبال عليها بكثرة من أجل سلامة ألسنتهم، و حسن نطقهم، علاوة على ذلك حفظ القرآن الكريم و ترتيله .ناهيك عن تثبيت القيم الإسلامية النبيلة لدى الناشئة من تهذيب للطباع، و التّحلي بالأخلاق الرفيعة، و توعية جيل الأطفال بفائدة العلم و تعلمه، يسعى معلم الكتاتيب إلى تعليمهم الإسلام و مبادئه، و الشريعة في حال مواصلة الطفل الدراسة في الكتاتيب، و هناك من يسعى إلى تعليمهم الحروف و الأعداد، و البعض العمليات الحسابية من أجل رفع مستوى هذا الطفل لما يلتحق بالمدرسة .

خاتمة: خلصت المقالة إلى جملة من النتائج وهي كالآتي

-تنبني الكتاتيب القرآنية على عملية تلقين القرآن الكريم وحفظه.

-تشكل الكتاتيب القرآنية روافد دينية وعلمية.

-تحبيب قراءة القرآن الكريم للأطفال.

-المساهمة في تحقيق الفصاحة والسلاسة للنطق السليم للطفل.

-المساهمة في تنشيط الطفل وتعويده على النهوض باكرا

-تعليمه الصلاة بطريقة بسيطة.

الهوامش:

1-عبد الوهاب بن إبراهيم أبو سليمان، عناية المسلمين بالوقف خدمة للقرآن الكريم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، ص 448 -ص 449.

2-ينظر: أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي في القرن العاشر إلى الرابع عشر، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 277.

3-ينظر: أحمد مريوش، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدارسات و البحث، الجزائر، 2007م، ص149.

4-عبد العزيز شهبي، الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب، وهران، الجزائر،2007م، ص13-ص14.

5-سعيدوني ناصر الدين، مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية، بحث في المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، الذكرى السبعمائة على قيام الدولة العثمانية، إستانبول عام 1999م، ص 48-ص 49.

6-ينظر: أحمد مريوش، الحياة الثقافية في الجزائر في العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث، الجزائر، 2007م، ص 149.

7-عبد الوهاب بن إبراهيم أبو سليمان، عناية المسلمين بالوقف خدمة للقرآن الكريم، مصدر سبق ذكره، ص 451.

8-ينظر: زغلول راغب ومحمد النجار، أزمنة التعليم المعاصر، نظرة إسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 1980م، ص 176.

9-ينظر: بن أحمد التيجاني، الكتاتيب القرآنية بندرومة 1900م-1977م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983م، ص 80.

10-ينظر: بوفلجة غياب، التربية ومتطلباتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، ص 27.

11-ينظر: وزارة الإعلام والثقافة، المجلة الثقافية، الجزائر، 1981م، ص 11-ص 14.

12-بن اسماعيلي محمد، مشايخ خالدون وعلماء عاملون، مطبعة الكاهنة، الدويرة، ط2، 1999م، 34.

13-محمد بن السعيد بن سعد، الكتاتيب والزوايا والحلل بالجنوب الجزائري، منشورات مختبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، الإصدار الأول، جامعة معسكر، الجزائر ماي 2011م، ص 01.

14-عبد الوهاب بن إبراهيم أبو سليمان، عناية المسلمين بالوقف خدمة للقرآن الكريم، مصدر سبق ذكره، ص 453.

15-عبد الكريم غلاب، التعريب و دوره في تدعيم حركات التحرر في المغرب العربي و الوحدة العربية، بيروت، 1982م، ص 154.

16-عبد الرحمن خلفة، الثوابت الوطنية غير قابلة للمصادرة أو التغيير أو التبديل، جريدة النصر السبت 07 جويلية 2019م

https://www.annasronline.com/index.php/2014-09-30-11-05-07/2014-08-24-14-17-03/125194-2019-07-06-10-48-13

17-مجموعة باحثين، نوابغ العرب، الكتاب 14، عبد الحميد بن باديس، دار العروبة، بيروت، 1976م، ص14.

18-بتصرف: عمار طالبي، ابن باديس، حياته وآثاره، ج3، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، 1968م، ص 145.

19-أبو خلدون ساطع الحصري، أحاديث في القومية والقومية، دار العلم للملايين، بيروت، 1957م، ص 107.

20-ينظر كريم مهدي المسعودي، الوطن في شعر الدلالة و البناء، دار صفحات النشر، سورية، 2011م، ص 15.

21-ينظر: احمد عزيز – الجزائر / الأناضول، كتاتيب تحفظ القرآن الكريم ...مقصد مفضل لأطفال المدارس الجزائرية، 31-07-2017م .

https://www.aa.com.tr/ar/

22-رضا شريف، الهوية العربية الإسلامية وإشكالية العولمة عند الجابري، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، د ط، 1432هـ-2011م، ص14.

23-عبد السلام المسدي، الهوية العربية و الأمن اللغوي، دراسة و توثيق، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، بيروت، ط1، تموز/ يوليو 2014م، ص 229-ص 230 .